جامعة الجيلالي بونعامة – خميس مليانة –

كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية

قسم علم الاجتماع

محاضرات مقياس

الانثربولوجيا الثقافية

الاستاذة :محامدية ايمان

مـــدخل عـــام

صدرت كلمة **"أنثروبولوجيا" (Anthropology)** عن الأصليين اليونانيين: **"أنثروبوس" (Anthropos)** ومعناه الإنسان، و**"لوغوس" (Logos)** ومعناه علم أو عقل أو دراسة، وعليه فإن الترجمة الحرفية لكلمة أنثروبولوجيا تعني علم الإنسان.

ولكن ما هو الإنسان؟

يختلف كل علم عن العلوم الأخرى في نظرته للإنسان، فرجال الاقتصاد ينظرون إلى الإنسان كساع وراء جمع الثروة، أو متصرف فيها بالإنفاق، وهو صانع للاختيارات من أجل حصوله على الوسائل النادرة لإنجاز أهدافه. وينظر الفلاسفة إلى الإنسان باعتباره حيوانا عقلانيا. ويدرس علم التاريخ سجل حياة الإنسان مرتبا أحداثه الهامة ترتيبيا زمنيا. ويتناول علم النفس عقل الإنسان من حيث كونه فردا ذا سلوك. أما علم الاجتماع فإنه يدرس العلاقات الاجتماعية ذاتها أو المجتمع نفسه.

ويؤكد الأنثروبولوجيون أن الإنسان يتميز بعدد من الخصائص الرئيسية، فهو حيوان ثديي يتم إنجابه بيولوجيا، وتقوم الأم بحمله وتغذيته وتربيته وتهذيبه. كذلك فهو ليس حيوان فقط، بل هو حيوان فقط، بل هو حيوان عاقل يعرف ويدرك. وهو أيضا الكائن الوحيد الذي يتمتع بالثقافة، فعالم الحيوان يفتقر إلى العادات والتقاليد والقيم والقانون. ويتميز الإنسان بأنه يتصل بأقرانه عن طريق الرموز، أما الحيوانات فيتصل بعضها ببعض عن طريق الإشارات. كما يتمتع الإنسان بتاريخ طويل وخصائص اجتماعية.

والأنثروبولوجيا هي الدراسة المتكاملة للإنسان بما تحويه من جوانب سيكولوجية وبيولوجية وفسيولوجية وثقافية واجتماعية. وحتى منتصف القرن التاسع عشر كانت جميع العلوم الإنسانية والاجتماعية تستخدم هذا المفهوم. وهاهو **"تايلور" (Tylor)** يعرفها بأنها: "الدراسة البيوثقافية المقارنة للإنسان" فهي تحاول الكشف عن العلاقة بين المظاهر البيولوجية الموروثة للإنسان، وما يتلقاه من تعليم وتنشئة اجتماعية.

ولعل أفضل طريقة لتعريف الأنثروبولوجيا تكمن في تحديد ما يقوم به علماء الأنثروبولوجيا في الواقع، ومع ذلك نجد أن هؤلاء العلماء يختلفون من مكان لآخر، ومن

زمن إلى آخر في نظرتهم للأنثروبولجيا، فيقول العلماء الأمريكيون أن الأنثروبولوجيا هي وصف الخصائص الإنسانية والبيولوجية والثقافية للنوع البشري عبر الزمان. ويستخدم الأمريكيون مصطلح الأنثروبولوجيا الفيزيقية للإشارة إلى الجانب العضوي أو الحيوي للإنسان، بينما يستخدمون مصطلح الأنثروبولوجيا الثقافية ليعني مجموع التخصصات التي تدرس الجوانب الاجتماعية والثقافية لحياة الإنسان. وفي فرنسا تعني كلمة أنثروبولوجيا دراسة التاريخ الطبيعي للإنسان. وفي ألمانيا تعني دراسة التنوعات الطبيعية الجوهرية بين البشر، أو الدراسة الطبيعية للإنسان. أما في بريطانيا فقد اختاروا تسمية أخرى وهي الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ونظروا إليها باعتبارها علما قائما لا جزءا من الأنثروبولوجيا الثقافية.

وهكذا تركز الأنثروبولوجيا مشكلاتها من ناحية على الإنسان كعضو في المملكة الحيوانية -أي ككائن فيزيقي حالي أو ككائن فيزيقي منقرض- يتألف من جسم وعقل وروح، ويتميز بخصائص فيزيقية في تكوينه ونموه. وهذه الخصائص تميزه عن بقية الكائنات الحية الأخرى. وتربط الأنثروبولوجيا أعضاء جسم الإنسان بحياته الروحية، وتهتم بالتغيرات الجسمية والعقلية التي تعتري الإنسان عبر التاريخ، ومن هنا تستعين الأنثروبولوجيا بعلوم التشريح المقارن والبيولوجيا الإنسانية، وبعلم آثار ما قبل التاريخ، وعلم الأجناس أو السلالات وعلم الحفريات، ويسمى هذا الفرع من الأنثروبولوجيا العامة بالأنثروبولوجيا الطبيعية أو الفيزيقية.

إلا أن الأنثروبولوجيا من ناحية أخرى لا تدرس الإنسان ككائن وحيد أو منعزل، وإنما تدرسه ككائن اجتماعي يحيا في مجتمع، وعليه حقوق وواجبات، ويؤدي وظائف اجتماعية، ويعيش في ثقافة، وينتشر في الأرض زمرا، ومن ثم فهي تدرس سلوك الإنسان كعضو في المجتمع من ناحية، ومنشئ للثقافة من ناحية أخرى.

وتدرس الأنثروبولوجيا الإنسان في كل زمان ومكان، فهي لا تقصر نطاقها في مرحلة تاريخية محددة بالذات، وإنما تهتم بالأشكال الأولى والمبكرة للإنسان وأجداده وأصوله منذ أقدم العصور والأزمنة حتى يومنا هذا، فهي تهتم بتاريخ الشعوب التي تفتقر إلى التاريخ

المسجل أو المكتوب، ونمو الحضارات منذ أقدم الأشكال التي وصلتنا عنها أي سجلات أو بقايا.

كذلك فهي تدرس الإنسان في كل مكان من أجزاء الكرة الأرضية، بحيث تهتم باقتصاديات الجماعات التي لا تعرف سوقا ذات نظم للسعر المحدد، وبنظم الحكم والسياسة في المجتمعات التي لا تؤلف دولة، وبالعلاقات الاجتماعية في المناطق التي يقوم فيها العمل والتخصص المهني على أساس القرابة، وبسيكولوجية الشعوب غير الغربية، وتهتم كذلك بالفروق بين الثقافات، وأوجه التشابه بينها في محاولة للتوصل إلى القوانين أو الأسس التي تحكم الثقافة وتطورها في المجتمعات الإنسانية المختلفة، ويسمى هذا الفرع من الأنثروبولوجيا العامة بالأنثروبولوجيا الثقافية.

أولا - مفهوم الأنثروبولوجيا الثقافية:

تدرس أصول المجتمعات والثقافات الإنسانية وتاريخها، وتتبع نموها وتطورها، وتدرس بناء الثقافات البشرية وأداؤها لوظائفها في كل مكان وزمان فالأنثروبولوجيا الثقافية تهتم بالثقافة في ذاتها، سواء كانت ثقافة أسلافنا أبناء العصر الحجري، أو ثقافة أبناء المجتمعات الحضرية المعاصرة في أوروبا وأمريكا. فجميع الثقافات تستأثر باهتمام دارس الأنثروبولوجيا، لأنها تسهم جميعا في الكشف عن استجابات الناس للمشكلات العامة التي تطرحها دوما البيئة المادية، وعن محاولات الناس الحياة والعمل معا، وتفاعلات المجتمعات الإنسانية بعضها مع البعض[1].

يؤكد هذا الطرح ما ذهب إليه **"مالينوفسكي" (Malinovski)** في مقاله المشهور الذي كتبه في دائرة المعارف الاجتماعية عن الثقافة، والذي يقول فيه أن الإنسان كائن له شكله الفيزيقي، تراثه الاجتماعي، وسماته الثقافية، وإذا كانت الأنثروبولوجيا الفيزيقية تصنف الإنسان تبعا لبنائه العضوي وخصائصه الفسيولوجية، فإن الأنثروبولوجيا الثقافية تدرس الإنسان ككائن يعيش في ثقافة، إذ أن الطفل حين يولد زنجي الأصل، ثم ينتقل إلى

[1] عيسى الشماس ، **مدخل الى دراسة علم الانسان** ، دد، 2008 ، ص 15.

فرنسا، فإنه ينشأ هناك بطريقة تتمايز تماما عما يكون عليه لو نشأ في الغابة موطن ثقافته الأصلية [1].

وفي نفس هذا المعنى يقول الفيلسوف الفرنسي**"ديكارت" (Descartes)** في مقاله عن المنهج: "ولو تأملت في الرجل نفسه، بنفس عقله، إذا نشأ منذ طفولته بين فرنسيين أو ألمانيين فإنه يصبح مختلفا عما يكون لو عاش دائما بين صينيين أو كانيباليين".

فالانثربولوجيا الثقافية تهدف الى فهم الظاهرة الثقافية و تحديد عناصرها ، كما تهدف الى دراسة عمليات التغيير و التمازج الثقافي و تحديد الخصائص المتشابهة بين الثقافات و نفسر بالتالي المراحل التطورية لثقافة معينة في مجتمع معين ، و لهذا استطاع علماء الانثربولوجيا الثقافية أن ينجحوا في دراستهم التي اجروها على حياة الانسان سواء ما اعتمد منها على التراث المكتوب للانسان القديم و تحليل اثارها او ما كان يتعلق بالانسان المعاصر ضمن اطاره الاجتماعي المعاش ، و هنا يدخل الى حد بعيد ما يسمى علم الاجتماع الثقافي .[2]

وانطلاقا مما سبق نخلص إلى أن الإنسان في كل زمان ومكان يملك ثقافة وتراث متميزا، وهذا التراث الثقافي هو المجال الرئيسي للبحث في الأنثروبولوجيا الثقافية.

إن الأنثروبولوجيا الثقافية تهتم بالكشف عن البقايا المادية للحياة الاجتماعية المندثرة فيما يعرف بعلم آثار ما قبل التاريخ، كما تهتم بالوقوف على ثقافة الإنسان الحاضرة فيما يعرف بالإثنولوجيا، وتبذل جهدا كبيرا لفهم الثقافة من خلال اللغات واللهجات الإثنية فيما يعرف بالأنثروبولوجيا اللغوية، وهو الأمر الذي يقودنا مباشرة للحديث عن فروع الأنثروبولوجيا الثقافية بشيء من التفصيل[3].

ثانيا : نشأة الانثربولوجيا الثقافية و مراحل تطورها :

لم تظهر الأنثروبولوجيا الثقافية كفرع مستقلّ عن الأنثروبولوجيا العامة، إلاّ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وربّما يعود الفضل في ذلك إلى العالم الإنكليزي / إدوارد تايلور / الذي يعدّ من روّاد الأنثروبولوجيا، والذي قدّم أول تعريف شامل للثقافة عام

---

[1] نفس المرجع ، ص 16.

[2] Guy ROCHER , **culture civilistion** , univercite de montreal , 1995 , p 85.

[3] Melvillen,D ,HERSKOVITS, **les bases de l antropologie culturelle** , collection petite collection maspero , n106 , paris , p 230.

1871 في كتابه " الثقافة البدائية " .وقد مرّت الأنثروبولوجيا الثقافية بمراحل متعدّدة، منذ ذلك الحين حتى وصلت إلى ما هي عليه في العصر الحاضر .

1- المرحلة الاولى : و تسمى مرحلة البدية : وتمتدّ من ظهور هذه الأنثروبولوجيا وحتى نهاية القرن التاسع عشر. وكانت عبارة عن محاولات لرسم صورة عامة لتطوّر الثقافة منذ القدم، والبحث أيضاً عن نشأة المجتمع الإنساني .

وظهر في هذه الفترة إلى جانب العالم الإنكليزي / تايلور /، العالم الأمريكي / بواز / الذي أخذ بالاتجاه التاريخي في دراسة الثقافات الإنسانية، وذلك من جانبين ؛ أولهما : إجراء دراسات تفصيلية لثقافات مجموعات صغيرة، كالقبائل والعشائر، ومراحل تطوّرها.

وثانيهما : أجراء مقارنة بين تاريخ التطوّر الثقافي، عند مجموعة من القبائل، بغية الوصول إلى قوانين عامة أو مبادىء، تحكم نمو الثقافات الإنسانية وتطوّرها .وهذا ما يعطي أهميّة للأنثروبولوجيا باعتبارها علماً لـه منهجيّته الخاصّة[1].

2- المرحلة الثانية : (المرحلة التكوينية) وتقع ما بين (1900- 1915 م)، حيث تركّزت الجهود في الأبحاث والدراسات، على مجتمعات صغيرة محدّدة لمعرفة تاريخ ثقافتها ومراحل تطوّرها، وبالتالي تحديد عناصر هذه الثقافة قبل أن تنقرض.

واستناداً إلى ذلك، جرت دراسات عديدة على ثقافة الهنود الحمر في أمريكا، وتوصّل الباحث الأمريكي / وسلر / إلى أسلوب يمكن بوساطته من دراسة أي إقليم أو منطقة في العالم تعيش فيها مجتمعات ذات ثقافات متشابهة، أو ما أصطلح على تسميته بـ) المنطقة الثقافية). وقد شبّه / وسلر / المنطقة الثقافية بدائرة، تتركّز معظم العناصر الثقافية في مركزها، وتقلّ هذه العناصر كلّما ابتعدت عن المركز [2].

3- المرحلة الثالثة : وتقع ما بين (1915- 1930 م) وتعدّ فترة الازدهار: حيث تميّزت بكثرة البحوث والمناقشات في القضايا التي تدخل في صلب علم الأنثربولوجيا الثقافية، ولا سيّما تلك الدراسات التي تركّزت في أمريكا ويرجع ازدهار الأنثربولوجيا في تلك الفترة، إلى نضج هذا العلم ووضوح مفاهيمه ومناهجه. وترافق ذلك بازدهار المدرسة التاريخية في أمريكا، وظهور المدرسة الانتشارية في إنكلترا، ولا سيّما بعد الأخذ بمفهوم (المنطقة

---

[1] Mondir KILANI , **anthropologie culturelle et sociale** , informations administrative , p 25.

[2] حمدان، محمد زياد ، **الثقافات الاجتماعية المعاصرة**، دار التربية الحديثة، عمّان ، 1990 ، ص 65.

الثقافية) الذي طرحه / وسلر / كإطار لتحليل المعطيات الثقافية وتفسيرها، والتوصّل إلى العناصر المشتركة بين الثقافات المتشابهة .

4- المرحلة الرابعة : ومدّتها عشر سنوات فقط، وتقع ما بين (1930- 1940 م). وعلى الرغم من قصر مدّتها، فقد أطلق عليها الفترة التوسّعية، حيث تميّزت باعتراف الجامعات الأمريكية والأوروبية بالأنثروبولوجيا الثقافية كعلم خاص في إطار الأنثروبولوجية العامة، وخصّصت لها فروع ومقرّرات دراسية في أقسام علم الاجتماع في الجامعات .

وظهرت في هذه الفترة النظرية (التكاملية) التي تبنّاها / سابير / عالم الاجتماع الأمريكي، واستطاع من خلالها تحديد مجموعة متناسقة من أنماط السلوك الإنساني، والتي يمكن اعتمادها في دراسة السلوك الفردي، لدى أفراد مجتمع معيّن، حيث أنّ جوهر الثقافة هو في حقيقة الأمر، ليس إلاّ تفاعل الأفراد في المجتمع بعضهم مع بعض، وما ينجم عن هذا التفاعل من علاقات ومشاعر وطرائق حياتية مشتركة.

وقد تأثّرت الأنثروبولوجيا في هذه الفترة- إلى حدّ بعيد- بالأنثروبولوجيا الاجتماعية، ولا سيّما في مفاهيمها ومناهجها، وذلك بفضل الأبحاث التي قام بها كلّ من / مالينوفسكي وبراون / في مجالات الأنثربولوجيا الاجتماعية.

5- المرحلة الخامسة : وهي الفترة المعاصرة التي بدأت منذ عام 1940، وما زالت حتى الوقت الحاضر. وتمتاز هذه المرحلة بتوسّع نطاق الدراسات الأنثروبولوجية، خارج أوروبا وأمريكا، وانتشار الأنثروبولوجيا الثقافية في العديد من جامعات الدول النامية، في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية [1].

وترافق ذلك مع ظهور اتّجاهات جديدة في الدراسات الأنثربولوجية، كان الاتّجاه القومي في مقدّمة هذه الاتّجاهات الحديثة في الأنثروبولوجيا الثقافية، والذي يهدف إلى تحديد الخصائص الرئيسة للثقافة القوميّة. وقد أخذت بهذا الاتّجاه الباحثة الأمريكية / روث بيندكيت / التي قامت بدراسة الثقافة اليابانية خلال الحرب العالمية الثانية[2].

ويسمّى الاتجاه القومي في تقييم الثقافة : " الانطوائية القومية " والتي تعني: أنّ الانسان يفضّل طريقة قومه في الحياة، على طرائق الأقوام الأخرى جميعها. تلك هي النتيجة

---

[1] نفس المرجع ، 61.

[2] P,s , **anthropologie** , campus France , campusfrance.org, 2009 , 20.

المنطقية لعملية التثقيف الأولى، والتي يتّفق بها شعور معظم الأفراد نحو ثقافتهم الخاصة، سواء أفصحوا عن هذا الشعور أو لم يفصحوا.

وتتجلّى الانطوائية القومية لدى الشعوب البدائية بأحسن أشكالها ، في الأساطير والقصص الشعبية، والأمثلة والعادات اللغوية .. فأسطورة أصل العروق البشرية لدى هنود (الشيروكي) تعطينا مثالاً حيّاً عن الانطوائية القومية. تقول الأسطورة:

"صوّر الخالق الإنسان بأن صنع أولاً فرناً وأوقد النار فيه، ثمّ صنع من عجينة ثلاثة تماثيل على شكل الإنسان، ووضعها في الفرن وانتظر شيّها (شواءها). غير أنّ لهفة الخالق إلى رؤية نتيجة عمله الذي يتوّج تجربته في الخلق، كانت من الشدّة بحيث أخرج التمثال الأول مبكراً، فكان – وللأسف- غير ناضج شاحباً باهت اللون، ومن نسله كان العرق الأبيض. أمّا التمثال الثاني، فكان ناضجاً جيّداً لأنّ مدّته في الشواء كانت مضبوطة وكافية، فأعجبه شكله الأسمر الجميل، وكان هذا سلف الهنود. وانصرف الخالق إلى تأمّل صورته، ناسياً أن يسحب التمثال الثالث من الفرن حتى اشتمّ رائحة الاحتراق. فتح باب الفرن فجأة، فوجد هذا التمثال متفحماً أسود اللون .. فكان ذلك مدعاة للأسف، ولكن لم يعد بالإمكان حيلة، وكان هذا أول رجل أسود ." [1]

بهذه الصورة تبدو الانطوائية القومية لدى الكثير من الشعوب .. حيث يصرّ الإنسان الفرد على التعبير عن صفات قومه الحميدة .. ولهذا يحكم أي إنسان على النظام القيمي الاجتماعي لدى أي شعب آخر، من خلال العلاقة التي تربط هذا الشعب بشعبه، وفق درجة الرغبة والقبول في ذلك، والتي قد تصل إلى حدود الرفض المطلق أو القبول المطلق، وفقاً لمعايير عامة.

وكانت من أهمّ الاتجاهات الحديثة أيضاً في الأنثروبولوجيا الثقافية، تلك الدراسات التي عنيت بالمجتمعات المتمدّنة، وما أطلق عليها " دراسة الحالة ". كدراسة أوضاع قرية أو عدد من القرى المتجاورة، أو في منطقة معيّنة، أو دراسة ثقافة خاصة بمجموعة أو بفئة من البشر. إضافة إلى دراسات أكاديمية تتعلّق بخصائص الأنثروبولوجيا الثقافية ومبادئها،

[1] هرسكوفيتز، ميلفيل ، **أسس الأنثروبولوجيا الثقافية**، ترجمة (رباح النفاخ) ، وزارة الثقافة، دمشق ، 1989، ص 43.

ومناهج البحث فيها وطرائقها وأساليبها .. وغيرها ممّا يسهم في إجراء الدراسات على أسس موضوعية وعلمية تحقّق الأهداف المرجوة منها[1].

ثالثا - فروع الأنثروبولوجيا الثقافية:

تتفرع الأنثروبولوجيا الثقافية من وجهة نظر عالم الإنسان الأمريكي**"فلكس كيسنج" (Félix Keessing)** على النحو التالي [2]:

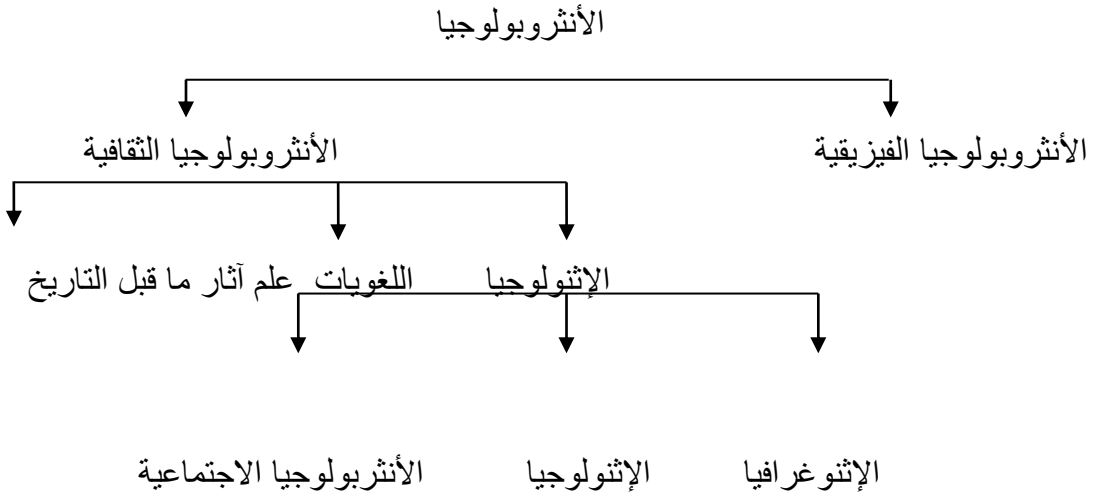

*** علم آثار ما قبل التاريخ:**

يركز علم الآثار اهتمامه في الأساس على المجتمعات والثقافات القديمة وكذلك على المراحل الغابرة من الحضارات الحديثة، وهو يحاول إعادة رسم صورة الأشكال الثقافية الماضية، وتتبع نموها وتطورها عبر الزمان، وإذا كان الجانب الأكبر مما نعرفه كتاريخ يقوم على وثائق كتبها أفراد عاشوا خلال الأحداث التي كتبوا عنها، بحيث يستطيع المؤرخ بالاستعانة بمثل هذه الوثائق أن يعين في أغلب الأحيان السياق الزمني للأحداث بدقة، وأن يربطها بعضها ببعض على نحو سليم، فإن المؤرخين الأنثروبولوجيين، أو علماء الآثار لا يتمتعون بهذه الميزة، ذلك أن الكتابة اختراع إنساني حديث للغاية على التاريخ البشري،

---

[1] عيسى الشماس ، مرجع سابق ، ص 95.

[2] اسماعيل، قباري محمد ، **الأنثروبولوجيا العامة**، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، 1973 ، ص 72.

فعلى حين ترجع البدايات الأولى للثقافات الإنسانية إلى حوالي مليون سنة مضت تقريبا، لا ترجع الكتابة إلى أكثر من حوالي خمسة آلاف سنة فقط، بل إننا نجد علاوة على هذا أن الكتابة مازالت غير معروفة بعد لكثير من المجتمعات البشرية حتى يومنا هذا، لذلك يتحتم على عالم الآثار أن يعيد رسم صورة ثقافات العصور الغابرة بالاستعانة بمنطلقاتها المادية وحدها في أغلب الأحيان. فقد يعثر على بعض الملاجئ التي كان يعيش فيها الإنسان القديم، كالكهوف مثلا، وكذلك على بعض الأدوات والأسلحة التي صنعها ذلك الإنسان واستخدمها، وعلى الأواني وغيرها من الأدوات المدفونة في الأراضي سواء مع صاحبها الذي كان يستخدمها أو في أكوام مكدسة في مكان إنتاجها. كذلك قد يعثر عالم الآثار على بعض الرسوم، والنقوش الحجرية والأشكال المصنوعة من الطين المحروق (الفخار)، وعلى أطلال المعابد القديمة، والبيوت، وأسوار المدن القديمة، وعلى أنواع وأعداد لا حصر لها من المواد الأخرى المصنوعة من خامات استطاعت أن تقاوم الزمن. فكل هذه المواد تسمح له بوصف جانب من الثقافة القديمة وربطها بالبيئة الطبيعية التي عاشت فيها. ومع ذلك فإن جانبا كبيرا من أي حضارة قبل تاريخية سيظل بالقطع بعيدا عن متناول عالم الآثار، فهو لا يمكن -على سبيل المثال- أن يتوصل إلى معرفة أي شيء عن لغات غير المتعلمين الذين كانوا يعيشون في ذلك الزمن الغابر، كذلك قد لا يتمكن إلا من الحصول على بعض الاستنباطات القائمة على المادة والنظريات الإثنولوجية عن حياتهم العائلية، أو تنظيماتهم السياسية، أو معتقداتهم الدينية. [1]لذلك فإن التسلسل الزمني أو السياق التاريخي الذي يعيد عالم الآثار رسم صورته يختلف اختلافا ملحوظا عن التسلسل الذي يرسمه الدارس الذي يسجل تاريخ شعب متعلم، فحيثما لا توجد تقاويم زمنية، ولا تكون هناك كتابة، نجد عالم الآثار يعمد في الغالب إلى تقديم تسلسل زمني تقريبي لأحداث ماضية. فقد يكتشف أن إحدى الثقافات التي تتميز بوجود أدوات من الشظايا الحجرية، وسكنى الكهوف والاقتصاد القائم على الجمع، تسبق ثقافة أخرى كانت تتميز بصنع أدوات من الحجر المصقول أو المشحوذ، ومساكن كبيرة نسبيا من الخشب، واقتصاد قائم على الزراعة، ولكنه لا يستطيع في أغلب الأحيان أن يحدد المدى الزمني الذي استغرقته كل مرحلة من هذه

[1]حمدان، محمد زياد ، **الثقافات الاجتماعية المعاصرة**، دار التربية الحديثة، عمّان ، 1989 ، ص 69.

المراحل، أو يحدد بدقة الأشخاص الذين اخترعوا تلك المواد. ومع ذلك فإن أساليب التاريخ تتحسن الآن باستمرار، وبذلك يسهم عالم الآثار بنصيب أساسي في إثراء معرفتنا بتاريخ الثقافات وتطورها فمنه نعلم أين ومتى اكتسب الإنسان الثقافة لأول مرة، ومنه نقف على جانب من تاريخ ثقافات الشعوب الأمية. كما نتوصل إلى قدر من المعرفة بتطور الثقافات البشرية، وندرك أن التطور الثقافي لم يسر بنفس السرعة في كل أجزاء العالم. فالبحوث الأركيولوجية لا تساعد فقط على إعادة رسم الماضي، وإنما تمدنا بكثير من مفاتيح فهم الطرق التي تغيرت من خلالها الثقافات الإنسانية، وتساعدنا المعلومات التي يقدمها عالم الآثار إذ أحسن الربط بينها وبين المعلومات التي تتوصل إليها الإثنولوجيا واللغويات على فهم العوامل العديدة المركبة التي تؤدي إلى إحداث التغير الثقافي.

*** الإثنولوجيا:**

تبدأ الإثنولوجيا حيث ينتهي علم الآثار، وهي تهتم بدراسة ووصف الثقافات المختلفة أينما وجدت: سواء في القارات الشاسعة، أو في صحاري وغابات إفريقيا، أو في الجزر القطبية المنعزلة المتناثرة في جنوب المحيط الهادي، أو في المدن المكتظة بالسكان في أوروبا، وآسيا، وأمريكا. ولذلك يقوم الجانب الأكبر من عمل الإثنولوجي على وصف السمات الثقافية للجماعات البشرية المختلفة. ونظرا لقلة معلوماتنا عما يعرف باسم الشعوب "البدائية" الموجودة في هذا العالم، نجد الإثنولوجي يكرس قدرا كبيرا من وقته لدراسة ثقافات تلك الشعوب البعيدة ذات المستوى الثقافي المتخلف نسبي. ولكننا لا يصح لهذا السبب أن نعرف الإثنولوجيا بأنها دراسة للثقافات "البدائية"، فهناك كثير من الدراسات الإثنولوجية التي تتناول المدن والمناطق الريفية في الولايات المتحدة، والمكسيك، والصين، واليابان، فالإثنولوجي يهتم بالثقافة كظاهرة مميزة للبشر في كل مكان، وليس بثقافات مجتمع معين أو مجموعة من المجتمعات[1].

والملاحظ أن الثقافات البشرية تختلف من إقليم لآخر، تماما كما تختلف من عصر لآخر، فلكل منطقة من العالم يعيش فيها الناس ثقافات مميزة خاصة بها. إذ نجد أن آداب السلوك والعادات المرعية عند سكان جزر البحر الجنوبي تختلف اختلافا ملحوظا عن

[1] نفس المرجع ، ص 70.

عادات شعوب إفريقيا، أو أمريكا الشمالية والجنوبية، أو آسيا أو أوروبا. ثم هناك داخل كل هذه الأقاليم الشاسعة حدود أخرى فرعية، فنجد على سبيل المثال أن ثقافات جنوب المحيط الهادي ليست متطابقة تمام التطابق على طول تلك المنطقة الشاسعة، فلكل من تسماينا وأستراليا، وأندونيسيا، وميلانيزيا وبولينزيا ثقافة خاصة ومميزة بل إننا نجد فضلا عن هذا أنه داخل كل إقليم تتميز كل جماعة محلية بملامح ثقافية متميزة.

ولكننا نلاحظ برغم التنوع الكبير في الحضارات البشرية كثيرا من أوجه التشابه اللافتة للنظر في ثقافات الشعوب التي تعيش على مسافات بعيدة بعضها عن بعض، ومن أمثلة هذا التشابه الملحوظ في بعض سمات التنظيم الاجتماعي بين شعب **"الأوناس" (Oanas)** الذي يعيش في أقصى الطرف الجنوبي لأمريكا الجنوبية وسكان استراليا الأصليين. ومن التطورات المتناظرة الأخرى بين ثقافات متباعدة بعضها عن بعض ما نجده في ميادين الكتابة، وطرق التقويم الزمني والأبنية الهرمية الشكل عند ثقافة **"المايا" (Maya)** في وسط المكسيك وأهرامات المصريين القدماء [1].

وتهتم الإثنولوجيا في جوانبها النظرية أكبر الاهتمام بمشكلة تفسير أوجه التشابه وأوجه الاختلاف بين الثقافات الإنسانية، وقد يتناول الباحث تلك المشكلة تاريخيا، فيحاول أن يتلمس في تاريخ شعب معين، في اتصاله أو عدم اتصاله بشعوب أخرى، أسباب أوجه الشبه والاختلاف. وقد يعمد إلى المقارنة المنهجية المنظمة بين الثقافات وبعضها ليتوصل إلى تحديد بناء تلك الثقافات وكيفية أدائها لوظائفها. وقد تقوده مثل تلك الدراسات إلى تفسيرات لأوجه التشابه الواسعة الانتشار وإلى أوجه الاختلاف النوعية الخاصة. كذلك قد تساعد الدراسات المقارنة للثقافات الإنسانية –ماضيها وحاضرها- على تفسير العمليات التي تغيرت بمقتضاها الحضارات البشرية في الشكل، وتوصلت من خلالها إلى هذا التنوع المعقد الذي نلاحظه اليوم، ويمكنها كذلك القيام بتحليلات لبناء المجتمعات البشرية وأدائها لوظائفها، ولهذا السبب تعتمد البحوث الإثنولوجية على ما تنتهي إليه الإثنوغرافيا والأنثروبولوجيا الاجتماعية من نتائج.

*** الإثنوغرافيا:**

[1] نفس المرجع، ص 72.

هي دراسة ثقافات الشعوب دراسة وصفية عميقة في المكان، وعلى نحو أفقي، وهي دراسة متزامنة تتعلق بالأحداث والوقائع التي تحدث لشعب معين أو عدد من الجماعات ترتبط ببعضها ارتباطا وثيقا، وذلك في وقت معين بالذات. وتقوم الإثنوغرافيا بتصنيف الشعوب وعقد المقارنات بين أوجه الشبه والاختلاف فيما بينها، إذا تتشابه الجماعات العنصرية بصفات سلالية، كما تتميز باختلاف اللغة ووسائل المعيشة، وطرائق التفكير وأنماط السلوك.

ويقضي الإثنوغرافي في دراسته مدة زمنية طويلة قد تصل إلى سنتين، في عمل حقلي، يتعلم خلالها لغة الأهالي التي تصبح لغته الثابتة. ويناقش الإثنوغرافي اكتشافاته ووجهات نظره في ضوء اكتشافات ووجهات نظر أخرى. وتفيد هذه الدراسة في أنها تمكن الإثنوغرافي من عقد المقارنات بين ثقافة مجتمعه وثقافة المجتمع الذي يدرسه.

وللتفرقة بين الإثنولوجيا والإثنوغرافيا نشير إلى أن الأخيرة هي الدراسة الوصفية المقارنة لمجتمعات وثقافات الإنسان، مثل مقارنة صناعات وأدوات مجتمع معين ببقية المجتمعات الأخرى والقائمة الآن بالفعل، وتلك هي المقارنة الأفقية. أما الإثنولوجيا فهي الدراسة الرأسية لمظاهر الثقافة بشقيها المادي واللامادي، مع محاولة التعرف على ماضي تلك السمات، والظاهرات الثقافية. وهذا يعني أن الدراسة الإثنوغرافية إذا كانت مقارنة في المكان، فإن الدراسة الإثنولوجية إنما هي مقارن في الزمان، خاصة الزمان الماضي المنقرض [1].

ومن ناحية أخرى فإن الإثنوغرافي بعد أن يجمع البيانات يأتي دور الإثنولوجي بعد ذلك لكي يستفيد من البيانات التي يزوده بها الإثنوغرافي، فيقوم بتصنيفها وتحليلها واستخلاص المبادئ التي تفسر الحقائق الإثنوغرافية، وإقامة النظريات التي تتعلق بطبيعة التصرفات الإنسانية والنماذج الحضارية ووظائفها. وعلى ذلك فإنه إذا كانت الدراسة الإثنوغرافية هي دراسة وصفية فإن الإثنولوجيا هي دراسة تفسيرية.

*** الأنثروبولوجيا الاجتماعية:**

[1] ناصر، ابراهيم ، **الأنثروبولوجيا الثقافية – علم الإنسان الثقافي** -، د د عمّان ، دت ، ص 86.

هي دراسة للسلوك الاجتماعي الذي يتخذ في العادة شكل نظم اجتماعية، كنظام الأسرة، والقرابة، والنظام السياسي، والنظم التشريعية، والعقائد الدينية وما شابه ذلك، كما تهتم بتوضيح العلاقة بين هذه النظم سواء في المجتمعات المعاصرة أو المجتمعات التاريخية التي يوجد لدينا عنها معلومات مناسبة، وتعتمد في ذلك على الدراسة الحقلية.

وقد وجه علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية اهتمامهم في السنوات الأخيرة نحو الدور الذي يؤديه الفرد في المجتمع، ونحو موضوع ارتباط نمو الشخصية بالتراث الثقافي، وقد اتجهت مثل هذه الدراسات أيضا نحو اتخاذ الطابع التعميمي، وهي تحاول التوصل إلى إجابات عن مشكلات مثل: ما هو الدور الذي يلعبه الفرد في بعض العمليات الثقافية مثل: الاختراع، والاستكشاف، وانتشار أو نشر السمات الثقافية؟ وماهي العمليات التي تؤدي إلى نمو وتطور الثقافة؟ ما هي الوسائل التي تحاول المجتمعات البشرية من خلالها تشكيل الشخصية الفردية؟ ما هي أنواع السلوك التي تحبذها الثقافة وتكافئ الفرد عليها، وتلك التي لا تحبذها؟ إلى أي مدى يمكن أن يبتعد الفرد عن المعايير الثقافية للسلوك المقبول وما الذي يتخذ حيال الفرد الذي يكسر القواعد؟ وقد استطاعت الدراسات التي من هذا النوع أن تمدنا بمعلومات أكثر دقة عن العمليات التي بمقتضاها تنمو الثقافات وتتسع نطاقا كما أمدتنا بنظرات جديدة، في فهم مشكلات طبيعة الشخصية ونموها، وتعليم الصغار والضبط الاجتماعي [1].

*** اللغويات:**

تختص اللغويات بدراسة جميع لغات البشر، بما في ذلك اللغات المستخدمة اليوم (سواء عند الشعوب الأمية أو عند الشعوب التي تعرف القراءة والكتابة)، واللغات التي لا نعرفها إلا من واقع السجلات التاريخية المكتوبة فقط (كاللغة اللاتينية، واليونانية القديمة، واللغة السنسكريتية). وينصب اهتمام دارس اللغويات أساسا على اللغة نفسها، فيهتم بأصولها وتطورها، وبنائها، بغرض الوقوف على المجموعات اللغوية، التي ترجع إلى أصول متشابهة، كالمجموعة السامية مثلا التي تضم اللغة العربية والعبرية وغيرها. كما تهتم بدراسة اللهجات المحلية وعلاقتها باللغة الأم، وتأثيرها على هذه اللغة، وتبحث عن

[1] نفس المرجع ، ص 87.

مصادر هذه اللهجات، وهل هي ترجع إلى لغات انقرضت؟ كما تدرس تأثير الحروب في انتشار بعض اللغات، وأثر التبادل الاقتصادي والثقافي على اللغة، فاللغة تهاجر من مكان إلى آخر بهجرة أصحابها ومحدثيها.

وهكذا يختلف عالم الأنثروبولوجيا اللغوية عن دارس اللغويات العملية، أو دارس اللغة المقارنة، أو دارس الأدب الذي يهتم باللغات اهتماما ثانويا بالنسبة لاهتمامه بالأعمال الأدبية نفسها، كما يختلف عن دارس فقه اللغة، الذي يهتم باللغة أساسا كوسيلة لفهم التراث الأدبي لشعب معين فهما أفضل. حيث يستطيع دارس اللغويات أن يعيد رسم صورة تاريخ اللغات والأسس اللغوية، كما أنه يقارن اللغات بعضها ببعض ليتوصل إلى تحديد السمات المشتركة بين اللغات في كل مكان. ويحاول دارس اللغويات من خلال الاستعانة بهاتين الوسيلتين أن يفهم العمليات التي بمقتضاها تظهر اللغات إلى الوجود، وتصل إلى تلك الدرجة من التنوع التي نجدها عليها اليوم. كما أن دارس اللغويات يهتم بالعلاقات العديدة القائمة بين لغة شعب من الشعوب وبقية جوانب ثقافته. وهكذا يمكن أن يدرس -على سبيل المثال- الكيفية التي ترتبط بها لغة جماعة معينة بمكانة تلك الجماعة أو وضعها الاجتماعي، والرموز اللغوية المستخدمة في الشعائر والاحتفالات الدينية، وكيف أن هذه الرموز تختلف عن الكلام اليومي العادي، وكيف يعكس تغير الحصيلة اللغوية في إحدى اللغات السمات الثقافية المتغيرة للشعب الذي يتكلمها، وكذلك العمليات التي تنتقل بواسطتها اللغة من جيل إلى آخر، وكيف تساعد تلك العمليات على نقل المعتقدات، والمثل العليا، والتقاليد إلى الأجيال التالية. فدارس اللغويات يحاول أن يفهم دور اللغة في المجتمعات البشرية والمهمة التي اضطلعت بها في رسم الصورة العامة للحضارات الإنسانية المتطورة [1].

[1] وصفي عاطف ، **الأنثروبولوجيا الثقافية**، دار النهضة العربية، بيروت ، دت ، ص 39.

رابعا : التطور النظري للأنثربولوجيا الثقافية :

1- لويس هنري مورغان

نشر مورغان في عام 1851 بحثاً بعنوان "عصبة الايروكيز" أبرز فيه النظام الأمومي السائد وسط الايروكيز. وكان اهتمام مورغان بنظم القرابة والنظم الاجتماعية والسياسية كبيراً مما دفعه للقيام برحلات واسعة بين الأمريند، وراسل المبشرين العاملين في جهات مختلفة من العالم مستفسراً عن أنظمة القرابة والتنظيمات الاجتماعية لدى الشعوب التي يبشرون بينها. كما وأطلع على كتاب هنري مين "القانون القديم" الذي نشر في عام 1861. نتيجة تلك الأبحاث والقراءات أصدر مورغان مؤلفة عن "أنظمة القرابة والمصاهرة في العائلة البشرية" في عام 1871 وألحقه في عام 1877 بمؤلفه "المجتمع القديم.[1]"

انطلق مورغان في تحليله لأنظمة القرابة من واقعة لاحظها لدى الايروكيز الذين عاش معهم واطلع على حياتهم بشكل واسع. لقد كان نظام القرابة السائد لدى الايروكيز "متناقضاً مع علاقاتهم العائلية الفعلية".. ففي الوقت الذي لم يكن فيه شك في حقيقة الأشخاص الذين كانوا آباءهم وأمهاتهم وبناتهم وإخوتهم يسميهم مورغان (بحسبانه أوروبي يعتمد النظام الوصفي للقرابة) أعمام وخالات ... إلخ. وكان أبناء العم المتوازين يعدون عند الايروكيز أشقاء وشقيقات، وكان أبناء العم المتصالبون (أي المتحدرون من أخوات الأب ومن إخوة الأم) هم وحدهم الذين يسمون بأبناء العم. ولقد تولدت لدى مورغان القناعة، بعد استقصاء ومراجعة أكثر من 250 قائمة بمصطلحات القرابة عبر العالم بأسره، بأن التناقض المميز لنظام القرابة لدى الايروكيز موجود أيضاً في الهند وفي أمريكا الشمالية. ولتفسير هذه الظاهرة العامة افترض مورغان أن نظام القرابة يتطابق مع شكل عائلي منقرض يمكن إعادة بنائه فيما لو تم التوصل إلى فك لغز ذلك النظام. كان هذا التناقض تعبيراً عن السرعة المتفاوتة لتطور الأسرة، العنصر الحركي الفعال، ولتطور أنظمة القرابة، العنصر السالب المنفصل.

[1] حسين فهيم ، **قصة الانثربولوجيا** ، فصول في تاريخ علم الانسان ، عالم المعرفة ، الكويت ، 1990، ص 171.

يرى مورغان أن الثقافة الإنسانية انتهجت في تطورها مساراً أُحادياً، أي أنها تنتقل عبر التاريخ وفق سلسلة متتابعة الحلقات، بمعنى وجود مراحل محددة وحتمية لا بدَّ أن تمر بها كل ثقافة من الحالات الدنيا إلى الحالات الراقية فالأكثر رقياً. وافترض مورغان وسعى إلى إيجاد علاقة عنصرين كبيرين في مرحلة ما قبل التاريخ هما: مرحلة التوحش ومرحلة البربرية وقسم كل مرحلة منها إلى مراحل فرعية دنيا ووسطي وعليا قبل الوصول إلى مرحلة المدنية .وبذلك استعاد التاريخ البدائي تلاحماً شاملاً وعمقاً .. تعدد الوجوه يبدو كالتالي:

1- -مرحلة التوحش الدنيا: يرى فيها مورغان طفولة البشرية حيث عاش الإنسان في مرحلة أشبه بالحيوانية هائماً على وجهه متغذياً بجذور النباتات وبعض الثمار البرية ... جامعاً وملتقطاً .

-2- مرحلة التوحش الوسطى: مرحلة تقدم فيها الإنسان قليلاً عما كان عليه في المرحلة السابقة باهتدائه إلى اكتشاف النار واستخدامها في طهي الطعام وإضاءة الكهوف. نتج عن ذلك تعرف الإنسان على أنواع جديدة من الأطعمة بخاصة اللحوم والأسماك.ذ

-مرحلة التوحش العليا: اكتشف فيها الإنسان القوس والسهم مما ساعده على تغيير غذائه واقتصاده بشكل عام، أصبح الإنسان في هذه المرحلة صائداً للحيوانات يعتمد على لحومها، أي أن الإنسان بدأ في هذه المرحلة في تحقيق الانتقال من جامع للطعام وملتقط له إلى منتج لطعامه. ويفترض مورغان ارتباط هذا التقدم في الاقتصاد بتقدم مماثل في شكل التنظيم الاجتماعي والديني.

-3- مرحلة البربرية الدنيا: تتميز بوصول الإنسان إلى إبداعات جديدة أهمها صناعة الفخار، وبخروج الإنسان من عزلته الضيقة وانتشاره في مناطق أكثر اتساعا، وبداية نشوء جماعات اجتماعية[1].

4- -مرحلة البربرية الوسطى: تمكن فيها الإنسان إلى صهر المعادن وصناعة الأدوات والآلات المعدنية، وبداية اكتشاف الكتابة الصورية.

[1] نفس المرجع ، ص 172.

ويرى مورغان أنه وبعد اجتياز الست مراحل تلك توصل الإنسان إلى مرحلة المدنية التي تتميز باختراع الحروف الهجائية والكتابة، وهي المرحلة التي لا زالت ممتدة حتى الوقت الراهن.

2 : النظرية التطورية الثقافوية :

لقد رأى أنصار الاتجاه التطوري في التقدم ثمرة التكامل في الأدوات المادية وثمرة التعقيد في العلاقات خلال مراحل تطورية معقدة. يتمظهر التقدم من خلال الانتقال من المرحلة الحيوانية إلى المرحلة البدائية ومن هذه إلى البربرية فالتمدن. وفي مرحلة الثورة الصناعية صار معيار التقدم يقاس بدرجة التطور التقني. إن مبدأ وحدة الجنس البشرى أساسه عالمية المعرفة التقنية كما عبر عن ذلك مورغان حيث كتب "نجد وحدة في فكر البدائيين البرابرة وإنسان المدنية. إنها هي نفسها ما ساعد البشر على ابتكار الأدوات نفسها والأواني ذاتها عندما يخضعون للعلاقات نفسها، وما يساعد أيضاً على اختراع المنشآت الاجتماعية نفسها وتطويرها انطلاقا من بدايات لا يمكن رؤيتها: من العصر الحجري والسهام التي التمعت صورتها في ذهن البدائي، إلى مزج المعادن، وفيه يتمثل ذكاء البربري، وأخيراً إلى تحريك القطار الحديدي، هذا هو انتصار المدن[1]."

فآراء التطوريين تتلخص في أن تاريخ الإنسانية وتاريخ الثقافة يمثل خطاً متصاعداً من العادات والتقاليد والعقائد والتنظيمات والأدوات والآلات والأفكار. وأن البشرية مرت بمراحل ثقافية تتدرج من الأشكال غير المعقدة إلى الأشكال المعقدة فالأكثر تعقيداً، وأن هذا الخط المتصاعد من الأسفل إلى الأعلى متشابه في أجزاء العالم نتيجة الوحدة النفسية لبني الإنسان في كل مكان وزمان وهو ما جعل التطوريين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شغلتهم فكرة تطور الثقافة والمجتمع الإنساني عبر مراحل التبدل من حالة إلى حالة، أكثر مما شغلتهم فكرة اكتشاف القوانين الأساسية التى تحكم عملية تطور الثقافة.

[1] مصطفى تيلوين ، **مدخل عام في الانثربولوجيا** ، دار الفارابي ، لبنان ، 2011 ، ص 30.

3: النظرية الانتشارية :

وقد ظهرت في أوروبا مدرستان للانتشار الثقافي. كان فريدريك راتزل رائداً للمدرسة الأولى وتبني منهجاً تاريخياً-جغرافياً بتأثير المدرسة الجغرافية الألمانية وركز على أهمية الاتصالات والعلاقات الثقافية بين الشعوب ودور تلك العلاقات في نمو الثقافة. وادعى راتزل بأن الزراعة اعتمدت إما على الفأس أو المحراث وهو ما يفسر الاختلافات بين الثقافات الزراعية. وتبعه في ذلك هان، المتخصص في الجغرافيا البشرية، وادعى الأخير بأن تدجين الحيوانات أعقب اكتشاف الزراعة المعتمدة على الفأس. ومع اعتراف هان بأن الزراعة المعتمدة على الفأس يمكن أن تكون قد ظهرت عدة مرات في أجزاء مختلفة من العالم إلا انه يؤكد على أن زراعة المحراث وتدجين الحيوانات واكتشاف عجلة الفخاري قد تمت كلها في الشرق الأدنى القديم ثم انتشرت منه إلى بقية أجزاء العالم. [1]أما هاينرينج شورتز فقد أبرز فكرة وجود علاقات ثقافية بين العالم القديم (اندونيسيا وماليزيا) وبين العالم الجديد (الأمريكتين). وقد طور ليو فروبينيوس فكرة انتقال الثقافات عبر المحيطات بادعائه حدوث انتشار ثقافي من اندونيسيا إلى أفريقيا. فقد حاول في كتابه الذي نشره في عام 1898 بعنوان "أصل الثقافات الأفريقية" إثبات وجود دائرة ثقافية ماليزية زنجية في غرب أفريقيا فسرها بوصول نفوذ ثقافي اندونيسي في صورة موجة ثقافية إلى ساحل أفريقيا الشرقي، ومن ثمَّ عبورها إلى غرب أفريقيا حيث لا تزال بقايا تلك الموجة موجودة في حين أن بقاياها قد اندثرت في شرق أفريقيا نتيجة هجرات البانتو والحاميين اللاحقة. بهذا يكون ليو فروبينيوس أول من أدخل مفهوم "الدائرة الثقافية" في الاثنولوجيا وهو المفهوم الذي نال تطوره اللاحق في أعمال جرايبز فكرة أحادية منشأ الثقافة الإنسانية مفترضاً وجود عدة مراكز ثقافية أساسية في جهات مختلفة من العالم.. وبفعل التقاء الثقافات نشأت دوائر ثقافية وحدثت بعض عمليات الانصهار وبرزت تشكيلات مختلفة وهو الأمر الذي يفسر الاختلافات البادية في الثقافات الأساسية. وفي عام 1905 نشر جرايبز بحثه عن "الدوائر الثقافية والطبقات الثقافية في جزر المحيط الهادي "والذي استخدم فيه عدد لا يحصى من العناصر الثقافية التي ترتبط بعضها بالبعض الآخر لتؤلف دائرةً ثقافية. وباستخدام التتابع

[1] شهرزاد بسنوسي ، **ثقافة التغذية و علاقتها بانتشار مرض السمنة بتلمسان – مقاربة انثربولوجية** – رسالة ماجستير في الانثربولوجيا ، جامعة تلمسان ، 2010،2011 ، ص 220.

الزمني وانتشارها في أستراليا وجزر المحيط الهادي. وفي عام 1911 نشر جرايبز كتابه "منهج الاثنولوجيا "الذى رسم فيه الخطوط العامة لمدرسته الانتشارية. أما فلهلم شميدت فقد نشر مع فيلهلم كوبرز خلاصة آراء مدرسة "فينا" وأكدا على وجود ثقافات أزلية تمثل أقدم أنواع المجموعات الثقافية المعاصرة. وكانت هذه الثقافات الأزلية (أقزام أفريقيا وآسيا والفيدا في سيريلانكا، والسينوى في الملايو، والكوبو في سومطرة) تمثل الدائرة الثقافية الأولى .وتمثلت الدائرة الثانية في الثقافات الرعوية في مناطق سيبيريا وأواسط آسيا)حيث دجن الساموييد في شمال سيبيريا الرنة، ودجن التركمان الحصان، ثم المجموعات التي دجنت الماشية والماعز ... إلخ

.وتنطوي فكرة الدائرة الثقافية على نقطتين هما: وجود الدائرة الثقافية وكينونتها، والدائرة الثقافية بحسبانها منهجاً بحثياً اثنولوجياً. ويعرف شميدت الدائرة الثقافية بقوله: "إذا احتوت ثقافة كاملة على كل شيء: النواحي المادية والاقتصادية والاجتماعية والاعتيادية والدينية، فإننا نطلق عليها اسم الدائرة الثقافية لأنها متكاملة وتعود على نفسها مثل الدائرة. إنها تكفي نفسها بنفسها، ومن ثم تؤمن استقلال وجودها. وهى – أي الثقافة- في حالة إذا ما أهملت أو فشلت في إرضاء واحد أو أكثر من الاحتياجات الإنسانية الهامة تتيح حدوث تعويض من ثقافة أخرى. وكلما زاد عدد عناصر التعويض تقل هذه الثقافة عن أن تكون دائرة ثقافية (مستقلة). ويضيف شميدت بأن كل مفردات الثقافة متماسكة تماسكاً عضوياً وليست مجرد ارتباطات تلقائية، غالباً ما يسيطر واحد من مظاهر الثقافة في الدائرة على بقية المظاهر، ومن ثم تدمغ هذه المظاهر بصبغتها الخاصة ويسوق مثالاً النسب الأموي المرتبط بالجماعات الأموية النسب غالباً ما تعبد القمر، بينما إله السماء هو الإله المسيطر عند الرعاة وإله الشمس عند الجماعات الطوطمية الأبوية النسب [1].

4: النظرية الوظيفية :

اقترنت الوظيفية بالاتجاه العضوي في العلوم الطبيعية عرف الاتجاه الوظيفي في الأنثروبولوجيا الاجتماعية بتركيزه على دراسة الثقافات الإنسانية كل على حدة وفق واقعها المكاني والزماني ذلك أن الوظيفية ليست دراسة متزامنة بقدر ما هي آنية. وفي ذلك اختلف

[1] نفس المرجع ، ص 221.

الاتجاه الوظيفي عن الدراسات التاريخية النزعة المميزة لكل من الاتجاهين التطوري الانتشاري. وقد تجلى الاتجاه الذى صار يعرف باسم المماثلة العضوية بداية في أعمال الفلاسفة الأخلاقيين الاسكتلنديين من أمثال آدم سميث وديفيد هيوم وغيرهما من الذين رأوا في المجتمع نسقاً طبيعياً ينشأ من الطبيعة البشرية لا من العقد الاجتماعي. وقد استخدم مونتسكيو مفهوم النسق في كتابه "روح القوانين" بوضعه أسس النسق الاجتماعي الكلى بناءً على ارتباط أجزاء المجتمع ارتباطا وظيفياً. وأصبحت فكرة النسق الاجتماعي العامل القوى في إرساء دعائم علم الاجتماع المقارن والأنثروبولوجيا الاجتماعية. أصبح التحليل الوظيفي مدخلاً أساسياً في تحليلات علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية للربط بين النظام الاجتماعي ووظيفته وبين خصائص سلوك الأفراد الذين يؤلفون ذلك النظام. يشتمل النسق الاجتماعي على عدد من النظم يقوم كل نظام بوظيفته المعينة بغية الحفاظ على سلامة النسق. وينظر الوظيفيون إلى المجتمعات البشرية أنساقاً اجتماعية تعتمد أجزاؤها بعضها على بعض ويدخل كل جزء منها في عدد من العلاقات الضرورية مع الأجزاء الأخرى. وقد ذهب هربرت سبنسر في موضوع المماثلة إلى أبعد من ذلك حيث شبه المجتمع من حيث البناء والوظيفة بالكائن الحي بحسبان أن المجتمع ينمو ويتطور تماماً كما ينمو الأول ويتطور[1].

ويؤكد مالينوفسكى على الأسس البيولوجية التى تقوم عليها النظرية الأنثروبولوجية ذلك أن البشر في كل زمان ومكان عليهم أن يشبعوا حاجاتهم الضرورية التى تؤهلهم على البقاء، أي أن على البشر أن يشبعوا حاجاتهم الضرورية من غذاء وهواء، وعليهم أن يتناسلوا، وأن يزودوا أنفسهم بالراحة والصحة والأمن وغيرها من الحاجات الضرورية التى تحفظ للنوع البشرى البقاء والاستمرار، أي أن الإنسان ليس مثل بقية الحيوانات يعيش فقط على الدوافع الجسمية، وإنما على الدوافع الثقافية. ونرى في كل مجتمع أنواعاً من الاستجابات الثقافية لكل تلك الاحتياجات الضرورية ذلك أنه وفقاً لرأي مالينوفسكى "لا يمكن تعريف الوظيفة إلا بإشباع الحاجات عن طريق النشاط الذى يتعاون فيه الأفراد ويستخدمون الآلات ويستهلكون ما ينتجونه."

[1] حرفوش مدني ، **نظريات علم الاجتماع (النظرية البنائية الوظيفية)** موقع انثربوس ، www.anthropos.com تم السحب يوم 12-11-2014.

و حاول رادكليف براون أن يطور الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى علم طبيعي يقوم على الدراسة العلمية المقارنة للأنساق الاجتماعية عند الشعوب البدائية .أسهم إسهاماً بناءً في دراسة البناء الاجتماعي وأنساق القرابة. يعد هو ومالينوفسكى المؤسسين لمدرسة الأنثروبولوجيا البريطانية الحديثة. ألف كتاب" :جزر الاندمان .(1922) "وجمعت مقالاته العلمية ومحاضراته في ثلاثة كتب" :البنية والوظيفة في المجتمع البدائي" (1952)، "علم طبيعي للمجتمع" (1957(، "المنهج في الأنثروبولوجيا الاجتماعية" (1958.(من أهم الاتجاهات التي تأثر بها بروان وهيمنت على أفكاره مسألة المماثلة بين الكائنات الحية والحياة الاجتماعية، أي على أساس المشابهة بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية البيولوجية كما كان الحال عند إميل دور كايم .يرى بروان أن المجتمع مثله مثل الكائن الحي يتألف من أجزاء أو وحدات تتداخل وظيفياً وتعتمد على بعضها البعض، فمثلاً أنه كما تتعاضد أعضاء الكائن الحي للحفاظ على الكائن حياً تعمل نظم المجتمع وتقاليده بدورها على بقاء المجتمع واستمراره. يُعرِّف بروان الوظيفة بأنها الدور الذى يؤديه أي نشاط جزئي في النشاط الكلى الذى يكون هو جزء فيه. هكذا تكون وظيفة أي نظام اجتماعي كامنة في الدور الذي يؤديه في البنية الاجتماعية المكونة من أفراد يرتبطون ببعضهم في كلٍ واحدٍ متماسكٍ للعلاقات الاجتماعية المحددة، ووظيفة أية عادة اجتماعية هي الدور الذى تقوم به العادة المعينة في مجمل الحياة الاجتماعية على أساس أن هذه الحياة هي عماد النسق الاجتماعي الكلى. يعطى براون أهميَّة للحياة الاجتماعية في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية طالما أن النسق الاجتماعي يؤلف، في رأيه، وحدة كيان ووظيفة، أي أنه ليس مجرد تجمع أو حشد وإنما هو كل متكامل مثله مثل الكائن العضوي[1].

رأينا كيف أن مالينوفسكى اهتم بمفهوم الثقافة وجعلها محوراً وأساساً لدراساته وتحليلاته الوظيفية. أما براون فيهتم بالمجتمع عاداً إياه نسقاً طبيعياً. اهتم براون من ثم بالأشخاص Persons عاداً إياهم وحدات بنيوية حيث أن هذه الوحدات تكوَّن الكل وتجعل منه بنيَّة، هذه الأهميَّة التى أولاها براون للأشخاص جعلته يفرق بينهم وبين الأفراد Individuals.الأشخاص أعضاء المجتمع يمكن أن يكون كل منهم مواطناً له مهنة معينة،

[1] نفس الموقع ، نفس المرجع .

أي أن الشخص عند براون يجسد مجموعة علاقات اجتماعية، في حين أن الفرد هو كائن بيولوجي بمعنى أنه يجسد مجموعة من العمليات الفسيولوجية والسلوكية ويقوم علماء الفسيولوجيا وعلماء النفس بدراسته. أما الأشخاص فأن دراستهم تقع في نطاق البنية الاجتماعية ولا يمكن دراسة أية بنية اجتماعية ودونهم بحسبانهم وحدات البنية الرئيسة. لهذا فأن دراسة المجتمع عند براون بمعناها البنيوي تشير إلى الترابط الداخلي الذى يربط بين البنية الاجتماعية وبين صيرورة الحياة الاجتماعية. عليه فأن استخدام مفاهيم مثل صيرورة Process، وبنية Structure ، ووظيفة Function ما هي إلا محاور بنى عليها براون نظريته في تفسير الأنساق الاجتماعية. تقوم فكرة الوظيفة بمعناها البنيوي عند براون على أساس أن البنية تؤلف مجموعة من العلاقات التى تربط بين تلك الوحدات البنيوية بدرجات متفاوتة. فالأسرة عند براون هي بمثابة وحدة بنيوية والعلاقات الأسرية القائمة بين أفرادها هي علاقات بنيوية تستحيل رؤيتها في عموميتها في أية لحظة لكننا نستطيع ملاحظتها. أن أهمَّ ما يميز تفسيرات براون وتحليلاته الوظيفية هو تركيزها على البنية الاجتماعية هو تركيزها على البنية الاجتماعية ووظيفتها وهو ما أدى إلى انبثاق اتجاه جديد في الأنثروبولوجيا صار يعرف بالاتجاه البنيوي الوظيفي.

اضطر رادكليف براون، في محاولته إعطاء الأنثروبولوجيا نقاءً جديداً ومنهجية، أن يذوب هذا العلم في النظرية العامة المتعلقة بالمجتمعات، أي في علم الاجتماع، وفي الوقت نفسه أعطى براون الأنثروبولوجيا تمايزاً معرفياً .وبما أن المجتمعات غير المعقدة (البدائية/غير المعقدة) نسبياً هي مادة موضوع دراسة الأنثروبولوجيا، فقد ارتأى براون إمكانية أخذ مفاهيم علم الاجتماع الأساسية (بنية، ووظيفة، ومجتمع الخ. كما أشرنا). هكذا تبدى لبراون بأنه يمكنه، انطلاقا من أجزاء طفيفة في علم الاجتماع، إثراء طريقته .الأمر كذلك يجوز القول بأن فكرة البنية الاجتماعية ظهرت في الأنثروبولوجيا مع التحليلات التى قدمها براون ومع تعريفه لمفهوم البنية [1].

[1] نفس الموقع ، نفس المرجع .

5 : النظرية الماركسية :

يقف البنيويون الماركسيون في مقدمة ركب الناقدين للاتجاهين المادي الثقافوى والإيكولوجى والثقافوى. تلجأ التفسيرات البنيوية الماركسية للتطور الثقافي إلى استعارة الكثير من المفاهيم التى أسسها كارل ماركس وفردريك إنجلز مثل مفهومي نمط الإنتاج والطبيعة الجدلية للتاريخ ويشمل مفهوم نمط الإنتاج بالنسبة لماركس كل من قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج. ويرى ماركس أنه على أساس قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج تنشأ عناصر البنية وعناصر البنية الفوقية بحيث يصبح ممكناً تفسير التاريخ والتطور الثقافي من خلال تحليل أنماط الإنتاج المتبدلة. ومع أنَّ العديد من أنصار الاتجاهين المادي والثقافوى البنيوي الماركسي يظهرون قدراً من الاتفاق بشأن تعريف لقوى الإنتاج انطلاقا من مصطلحات تقنية بيئية أساسية (على سبيل المثال المناخ، والأنظمة الزراعية، والآليات ... إلخ.

يعتمد تحليل ماركس للتاريخ على الافتراض بأنَّ التاريخ هو صيرورة جدلية تشتمل على توترات متعاقبة للفرضية، ونفي الفرضية (الفرضية المضادة) والتركيب الذى ينفي الفرضية المضادة لكنه يحمل سمات الفرضية والفرضية المضادة ويحافظ عليها لكن في مستوى أعلى. المثال الذى اهترأ لكثرة استخدامه هو مثال البذرة (الفرضية) التى تنشأ عنها النبتة (الفرضية المضادة) وعودة النبتة إلى بذرة، لكن هذه المرة ببذرات عديدة (التركيب). في كل المواد التاريخية العينية – أي في الواقع الفعلي – يمكن ملاحظة هذه الصيرورة الجدلية التى تكون نتيجتها المسار الصاعد للتاريخ. الجانب التطوري تم توضيحه في أعمال انجلز لكنه كان أكثر تجلياً في كتابات ماركس "في مرحلة معينة من تطورها تدخل قوى الإنتاج المادي للمجتمع في صراع مع علاقات الملكية التى كانت فاعلة في إطارها. من أشكال لتطور القوى المنتجة تتحول تلك العلاقات إلى قيود تكبلها. حينها يبدأ عصر الثورة الاجتماعية". بالنسبة لماركس فإنَّ التطور الثقافي يحدث لا عبر تواتر مراحل مرتبة مسبقاً بل عبر انحلال المجتمعات عن طريق العملية الجدلية. لا يمكن لنمط الإنتاج المعين تبديل نفسه إلى نمط آخر طالما أنه يحتوى على تناقضات ستؤدى إلى فنائه [1].

[1] كريس هارمان ، **المركسية** ، مركز الدراسات الاشتراكية ، دار الكتب ، ط1، 2003، ص 40.

خامسا: الثقافة و الحضارة

1 : في دلالة الثقافة و الحضارة

قد يطلق على الثقافة مصطلح آخر مرادف هو الحضارة، فقد ذهب **"تايلور"** إلى أنه لكل مجتمع حضارته أو ثقافته الخاصة به، إلا أن هناك من العلماء من يرى ضرورة الفصل بين الثقافة كمصطلح، والحضارة كمصطلح آخر، ويستند دعاة هذا التفريق على أن الثقافة إنما تطلق على "الأمور غير المادية في المجتمع" ومنها المعتقدات والمعارف والقيم والعادات والتقاليد ومختلف صور الفن ومظاهره، بينما يدل مصطلح الحضارة على " الأمور المادية في المجتمع" لاسيّما الاختراعات بما فيها صور الفن ومظاهره، كما يدل مصطلح الحضارة أيضا على "مختلف التطورات التي تلحق بتلك الجوانب المادية في المجتمع" كالتطور الناشئ في مجال الصناعة أو الزراعة أو الاتصالات، خصوصا ما تم منها وفقا للمخترعات والاكتشافات العلمية [1].

يدخل ضمن هذا الرأي الأنثروبولوجي الألماني**"ثور نوالد" (R.Thurnwald)** حيث يرى أن الثقافة تشتمل على مجموع الأشياء والعادات والأفكار التي تبدو في المجتمعات وتكون مرتبطة بها، على حين تمثل الحضارة الكفاءات والمهارات التي تنمو من خلالها التكنولوجيا والمعرفة، وباختصار فإن الثقافة تستخدم الحضارة كوسيلة لها".

ويذهب **"ألفريد فيبر" (A.Weber)** الذي يرجع إليه الفضل في إنشاء علم الاجتماع الثقافي إلى أن الحضارة تقوم على استمرار التفكير والتقدم العقلي، فهي تمثل المجهود الإنساني في سبيل السيطرة على عالم الطبيعة بوسائل عقلية في ميدان العلوم والحياة العملية والتخطيط. في حين أن الثقافة تقابل الفلسفة والدين والفن، فالحضارة تراكمية، والثقافة غير تراكمية".

في نفس السياق يقرر الأنثروبولوجي الأمريكي **"ليزلي هوايت" (L.white)** التضاد بين الثقافة والحضارة مشيرا إلى أن "الثقافة عكس الحضارة، إذ تقوم على الحياة الروحية أو تطور الحياة العاطفية والروحية والفلسفية".

---

[1] محمد السويدي، **مفاهيم علم الاجتماع الثقافي ومصطلحاته**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الدار التونسية للنشر، تونس، 1991، ص 29.

وقد حصر **"ماكيفر"** وزميله **"بيج"** نقاط الاختلاف بين الحضارة والثقافة فيما يلي:

1- للحضارة دون الثقافة معيار دقيق للقياس، إذ تخضع الحضارة أو النظام النفعي لمعيار الفعالية، فعند مقارنة نتاجات الحضارة وعملياتها نستطيع أن ننسب إليها التفوق والانحطاط في نفس الوقت، فليس هناك من يجادل في تفوق الجرار على المحراث اليدوي، أو في تفوق العملة الحديثة ونظام الائتمان على المقايضة البدائية، خلافا للجانب الثقافي الذي يثير مشكلة القيم النهائية، والتي لا يمكن أن نفصل فيها فصلا نهائيا حاسما، فإذا ما ادعى أحد أن **" بيرنارد شو"** كمؤلف مسرحي أفضل من **" شكسبير"** فإن أحدا لا يستطيع أن يبرهن على صحة إدعائه أو بطلانه.

2- الحضارة في تقدم مستمر خلافا للثقافة، فأي إنجاز حضاري يتم استغلاله بوجه عام، وتدخل عليه التحسينات إلى أن يبطل أو يصبح غير ذي فائدة، وذلك بعد ظهور اختراع جديد، وهذا بخلاف المنجزات الثقافية التي تسير بالضرورة في مسار تقدمي، فمنذ أن اخترع الإنسان السيارة وهي في تحسن مستمر، والأمر يختلف تماما بالنسبة لمسرحياتنا وتماثيلنا ومناقشاتنا، فمسرحيات اليوم ليست بالضرورة أفضل من مسرحيات **" شكسبير"**، فالثقافة عرضة للتقهقر كما أنها عرضة للتقدم.

3- إن الحضارة خلافا للثقافة تنتقل بدون مجهود، فالمجتمعات تسارع إلى اقتناء آخر المنتجات المادية التي أثبتت فعاليتها في الحياة العملية، خلافا للثقافة التي لا تنتقل إلا بين العقول المتشابهة.

4- إن الحضارة خلافا للثقافة تستعار بدون تغيير، لأنها أشياء مادية ملموسة أثبتت قيمتها النفعية، في الوقت الذي تعتبر فيه الاستعارة الثقافية استعارة انتقائية، سرعان ما تصطبغ بالصبغة الشخصية لعقول المستعيرين وبمقوماتهم الذاتية [1].

[1] نفس المرجع ، ص 41.

سادسا: خصائص الثقافة و الحضارة :

-1- خصائص الحضارة :

ميز **"سيرلنج كي" (S.Key)** الحضارة في ضوء خمس خصائص:

1- الحضارة من حيث الجوهر والأساس ظاهرة حضرية، لأنها تشمل تقسيما للعمل واختصاصا فيه، وتركز على الفعاليات الاقتصادية.

2- تتميز الحضارة بالتقنية، أي أنها تطبق الصناعة، وتخضع أوجه الحياة الإنسانية للنظام الآلي الميكانيكي.

3- تختص الحضارة بسيادة الفلسفة العقلية كقيمة سامية لمختلف الفعاليات.

4- يظهر في الحضارة اتجاهان رئيسيان هما: المركزية والسلطة.

5- ونتيجة لتمركز السلطة، ولانتشار وسائل النقل، وتوسيع النظام الصناعي، تظهر الدولة الديكتاتورية أو الحكم المطلق (ويبقى مثل هذا الحكم نسبيا).

ويضيف **"د. عبد الجليل الطاهر"** إلى الفروق السابقة الذكر بين مصطلحي ثقافة وحضارة أن" الثقافة ظاهرة فريدة ووحيدة، إذ تختلف اختلافا كبيرا عن العناصر المكونة للحضارة التي تباع وتشترى، كما أن مقومات الحضارة لا تتصف بالقدسية والاحترام مثل المقومات الثقافية لأن باستطاعة كل فرد أن يدخل في حوزته عناصر الحضارة لغرض التمتع بفوائدها ومنافعها".

أما **"د. مصطفى الخشاب"** فيرى أن "الحضارة هي التطبيق المادي للتراث الثقافي، وهي وليدة هذا التراث في البيئة التي تقوم فيها، وهي المرآة التي تعكس لنا مقومات ثقافة المجتمع وخصائصها العامة غير أنه لا ينبغي أن نوسع من الهوة التي تفصل بين لفظتي "ثقافة وحضارة"[1].

ويؤيده في هذا الرأي كثيرون ممن يرون أن التفرقة بين الحضارة والثقافة لا تنهض على أساس مقنع، وذلك للتظافر الموجود بين الجانب المادي وغير المادي للثقافة ويرون أن المخترعات المادية كلها كانت فيما مضى فكرة أو مجرد خيال.

[1] صاموئيل هنتغتون ، **صدام الحضارات صنع النظام العالمي** ، ترجمة طلعت الشايب ، سطور ، 1999، ص40.

وما لبث أن برز رأي يصحح مسار العلاقة بين شطري الثقافة، ويرى أنه لا مانع من استخدام مصطلح الحضارة للتعبير عن مستويات الثقافة الأكثر تقدما.

يدخل ضمن هذا الرأي **"عبد الرحمن بن خلدون"** الذي عالج مراحل تطور المجتمع البشري مخصصا المرحلة الثالثة منها لحالة "الحضارة" التي عرفها بأنها التفنن في الترف، وأنها غاية العمران، وهي حالة يستقر فيها الملك، ويقوى فيها النعيم المقيم، ويتجه فيها الناس إلى إتقان الصنائع والمهارات المهنية، والتأنق في سبل العيش، سواء كان ذلك في المأكل والملبس والمسكن، أو في إشباع سائر الميول والشهوات، ولهذا كانت هذه حالة سكون ووقوف.

من جانبه عرف المؤرخ الحضاري الإنجليزي**"ول ديورانت"** الحضارة في موسوعته التاريخية "قصة الحضارة" بأنها "نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي" وهو يرى بأن "الحضارة تتألف من أربعة عناصر أساسية هي: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، وتحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها"[1].

وقد ذهب **"رولاند ديكسون" (R.Dixon)** إلى أن الثقافة هي كل شيء يعمله الإنسان لرفع مستواه فوق حدود الطبيعة، ولهذا لا تكون ولا يمكن أن تكون للحيوان ثقافة، وأن الثقافة ظاهرة تشمل كافة الإنجازات التي توصل إليها الإنسان من خلال حياته الجماعية، سواء كانت تلك الحياة اجتماعية أو اقتصادية أو دينية... ومن المألوف استعمال كلمة حضارة لوصف الشعوب المتقدمة".

ويرى **"إيكه هولتكرانس"** في قاموس "مصطلحات الأنثروبولوجيا والفلكلور" بأن: الحضارة ثقافة معقدة، وعادة ما تكون واسعة الانتشار، تتميز بمصادر تكنولوجية متقدمة وإنجازات روحية متفننة في العلم والفن"

[1] نفس المرجع ، ص41.

ويؤلف **"جينزبرج"** بين الرأيين حيث يذهب إلى أنه "بمرور الزمن أصبح لمفهوم حضارة مظهران متميزان، فهي من ناحية أرقى أشكال الثقافة، ثم هي من ناحية أخرى تمثل الشكل الخارجي "المادي للثقافة".

وعموما، فإن الأنثروبولوجيين لا يفرقون بين مصطلحي الحضارة والثقافة، بل يستخدمون المصطلحين للتعبير عن نفس الحقيقة، ومبررهم في ذلك تعريف" **تايلور**" للثقافة والذي يتضح من خلاله التضامن العضوي بين عناصر الثقافة المادي وغير المادي.

2-2- خصائص الثقافة :

علي الرغم مما يظهر بين الثقافات من اختلاف أو تباين فهناك بعض الخصائص العامة لجميع الثقافات هذه الخصائص التي تستند إلي المفهوم العام الشامل للثقافة ومن هذه الخصائص العامة:

-**الثقافة ذات خاصية مادية ومعنوية معا :** ثقافة المجتمع تحدد نمط وأسلوب الحياة في هذا المجتمع والعناصر المادية هي عبارة عن تلك العناصر التي أتت نتيجة للجهد الإنساني العقلي والفكري وفي نفس الوقت لا تكتسب الثقافة وظيفتها ومعناها إلا بما يحيطها من معاني وأفكار واتجاهات ومعارف وعادات هذا فضلا عن أن العناصر المادية تؤثر بدورها في مفاهيم الأفراد وقيمهم واتجاهاتهم وعلاقاتهم أي أن الإحالة متبادلة بين العناصر المادية واللامادية داخل البناء الثقافي ومن ثم فإن البناء الثقافي يشمل العنصرين معا في آن واحد [1]

-**الثقافة عضوية -:** إذا كانت الثقافة تشتمل علي العناصر المادية واللا مادية معا فإن كلا من العناصر المادية وغير المادية يرتبط بعضها ببعض ارتباط عضويا فيؤثر كل عضو في غيره من العناصر كما يتأثر به فالنظام الاقتصادي يتأثر بالنظام السياسي والعكس صحيح كما أن النظام التعليمي يتأثر بالنظامين معا ويؤثر فيهما ومن جهة ثانية فإن العادات والتقاليد تؤثر في نظام الأسرة من حيث طريقة الزواج والعلاقة بين الكبير والصغير وإذا تغير أي عنصر من هذه العناصر فإنه سيتبعه تغيرا حتميا في النظم الأخرى أضف إلي هذا أن

[1] ماجد مهندس القاسم ، **الثقافة و التربية** ، منتدى أفاق علميو و تربوية ، www.al3oloum.com ، تم السحب يوم 2014-12-29 .

التغير في أساليب المعيشة يتبعه تغييرا في القيم والعادات ومن ثم فإن عناصر الثقافة يرتبط بعضها بالبعض ارتباطا عضويا يتسم هذا الارتباط بالديناميكية وليس بالاستاتيكية.

-الثقافة مكتسبة : الثقافة ليست فطرية في الإنسان بل يتعلمها الأفراد وينقلونها من جيل إلي جيل ويخطئ من يذهب إلي اعتبار الثقافة فطرية في الإنسان يكتسب الثقافة منذ سنواته الأولى حتى تصبح جزءا من شخصيته كما يصبح هو عنصرا من عناصر هذه الثقافة.

-الثقافة تراكمية :تتميز بعض عناصر الثقافة بالتراكم ذلك أن الإنسان يبدأ دائما من حيث انتهت الأجيال الأخرى وما تركته من تراث وبتراكم الجوانب المختلفة تتطور بعض جوانب الثقافة وتختلف درجة التراكم والتطور من عنصر إلي آخر فمثلا تتطور اللغة تراكمي يأخذ طريقا غير تراكم القيم وغير تراكم التطور العلمي والتكنولوجي ومعنى هذا أن الإنسان لا يبدأ حياته الاجتماعية والثقافية من العدم وإنما يبدأ من حيث انتهت الأجيال الراشدة الحية التي ينتمي إليها ومن التراث الاجتماعي الذي يعبر عن خبرات الأجيال السابقة فبعض عناصر الثقافة في أي مجتمع تعبر عن خلاصة التجارب والخبرات التي عاشها الأفراد في الماضي بما تعرضوا له من أزمات وما رسموه من أهداف وما استخدموه من أساليب وما تمسكوا به من قيم ومعايير وما نظموه من علاقات وتتراكم الجوانب المختلفة علي هذا النحو بطرق وصور مختلفة.

-إمكانية انتقال عناصر الثقافة بالاحتكاك : فكلما زاد الاحتكاك والتعامل بين مجتمع وآخر كلما زادت درجة الانتقال الثقافي بين هذين المجتمعين ولكن المجتمع ذو الثقافة الأقوى والأفضل يؤثر بدرجة أكبر في المجتمع ذي الثقافة الأقل نجاحا وقوة وبالتالي فالثقافة ديناميكية متغيرة [1].

[1] نفس المرجع ، نفس الموقع .

سابعا: رواد الثقافة و الحضارة :

إن التطورات والتغيرات السريعة التي تجري في بقاع العالم قاطبة، تؤكد علينا جميعاً ضرورة القيام بمراجعة فكرية - ثقافية، نكتشف من خلالها أصولنا الفكرية ومفاهيمنا الأصلية كخطوة أولى في سبيل إعادة تأسيس لمفاهيمنا ومقولاتنا الفكرية والثقافية، لكي نشارك بفكر فاعل وثقافة ناهضة في تطورات العالم ومنعطفاته الحضارية.
وبما أن المسألة الثقافية تلخص تجربة الأمة والمجتمع، ووعيها بذاتها ومحيطها فهي تشكل نافذة أساسية يطل من خلالها المرء على العالم وأحداثه وتطوراته. وعن طريق الجهاد الفكري والمعرفي تتحول الثقافة في محيطنا الخاص والعام إلى ثقافة فاعلة وإيجابية، وتنقل الكتل البشرية المختلفة من موقع الصمت السلبي أو الاستهلاك الدائم، إلى موقع المشاركة الإيجابية في مسيرة المجتمع والوطن

وتأسيساً على هذه الحقائق من الأهمية بمكان أن نتعرف على خصائص النظرية الثقافية عند (مالك بن نبي (لما تشكله هذه الخصائص من جوهر كتاباته وإنتاجه الثقافي وبنود وأركان مشروعه الثقافي - الفكري.. وهذه الخصائص هي كالآتي:

-التجديد والإبداع:

وتتجلى هذه الخاصية، حينما يتحدث (بن نبي) عن شروط الحضارة ويقول: أن مشكلة الحضارة تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية - مشكلة الإنسان - مشكلة التراب - مشكلة الوقت - فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها[1].

وحتى تؤتي هذه العناصر ثمارها، لابد من وجود مركب الحضارة وذلك فإن مجموعها ناتج للإنسان والتراب والوقت، فلم لا يوجد هذا الناتج تلقائياً حيثما توفرت هذه العناصر الثلاثة؟

وإنه لعجب يزيله اقتباسنا للتعليل الكيماوي.. فالماء في الحقيقة نتاج للهيدروجين والأوكسجين وبرغم هذا لا يكونانه تلقائياً، فقد قالوا إن تركيب الماء يخضع لقانون معين يقضي تدخل (مركب) ما، بدونه لا تتم عملية تكون الماء.. وبالمثل لنا الحق في أن نقول:

[1] مالك ابن نبي ، **شروط النهضة** ، ترجمة عمر كاسل مسقاوي ، دار الفكر ، دمشق ، 1986، ص 88.

إن هناك ما يطلق عليه (مركب الحضارة)أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض، فكما يدل عليه التحليل التاريخي نجد أن هذا المركب موجود فعلاً، هو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ.

ويوضح بن نبي هذه العناصر كالتالي :

الإنسان :إن المشاكل التي تحيط بالإنسان تختلف باختلاف بيئته.. فالإنسانية لا تعاني مشكلة واحدة بل مشاكل متنوعة تبعاً لتنوع مراحل التاريخ.. فلا يمكن لنا أن نقرن في الوقت الحاضر (بتعبير مالك بن نبي) بين رجل أوروبا المستعمر ورجل العالم الإسلامي القابل للاستعمار، لأن كليهما في طور تاريخي خاص به ..فالأمر في الحالة الأولى يتعلق بحاجات غير مشبعة وديناميكية، مضطربة، على حين يتعلق في الأخرى بعادات راكدة وضعت للفرد في حالة توازن خامد، وخمول تام، في الوقت الذي خطت فيه الحضارة خطوات العماليق. وعليه فالأمر متصل بمشكلتين مختلفتين في أساسهما، فهنالك هم في حاجة إلى مؤسسات بينما نحتاج هنا إلى رجال، فمن الرجل تنبع المشكلة الإسلامية بأكملها. ومشكلة الإنسان في أساسها لا تعالج إلا بتوجيه ثقافته، وتصفية العادات والتقاليد الميتة في نفسيته وتنمية روح الإبداع لديه.

التراب :وهو أحد العناصر الثلاثة التي تكّون الحضارة فإذا ما توفر المركب الديني لتركيب هذه العناصر فإننا نرى التراب في بلاد الإسلام جديراً ببحثه كعامل من عوامل الحضارة وحينما نتكلم عن التراب لا نبحث في خصائصه وطبيعته ولكننا نتكلم عنه من حيث قيمته الاجتماعية وهذه القيمة الاجتماعية للتراب مستمدة من قيمة مالكيه، فحينما تكون قيمة الأمة مرتفعة وحضارتها متقدمة يكون التراب عالي القيمة وحيث تكون الأمة متخلفة يكون التراب على قدرها من الانحطاط[1]

الوقت :بتحديد فكرة الزمن يتحدد معنى التأثير والإنتاج وهو معنى الحياة الحاضرة الذي ينقصنا هذا المعنى الذي لم نكسبه بعد وهو مفهوم الزمن الداخل في تكوين الفكرة والنشاط في تكوين المعاني والأشياء فالحياة والتاريخ الخاضعان للتوقيت كان ولا يزال يفوتنا قطارهما، فنحن في حاجة ملحة إلى توقيت دقيق وخطوات واسعة لكي نعوض

[1] نفس المرجع ، ص 90.

تأخرنا ويشير عمر كامل مسقاوي إلى الإبداع الثقافي عند بن نبي بقوله: فقد جاءت أفكار بن نبي حول مفهوم الثقافة برؤية جديدة لم تألفها المصطلحات المستوردة التي تمت صياغتها في إطار الفكر الليبرالي أو في أطار الفكر الاشتراكي التقدمي لذا شعر أستاذنا مالك بن نبي بالحاجة إلى جميع أفكاره حول الثقافة وعرضها من جديد، في صورة تحليلية تحفز الفكر العربي والإسلامي، وتحركه باتجاه اكتشاف الحقائق والمصطلحات بوسائل خاصة ووفق المعطيات النابعة من تجربته.

وتتجلى قيمة الإبداع من الإنتاج الفكري لدى مالك بن نبي حينما يقول: "إن التاريخ لا يصنع بالاندفاع في دروب سبق السير فيها، وإنما بفتح دروب جديدة.. ولا يتحقق ذلك إلا بأفكار صادقة تتجاوب مع جميع المشاكل ذات الطابع الأخلاقي وبأفكار فعاله لمواجهة مشكلات النماء في مجتمع يريد إعادة بناء نفسه."

ويضرب (بن نبي) على ذلك بمثال من واقع الثقافة الغربية إذ يقول "ولعل أثر هذه النظرية قد لوحظ في الثقافة الغربية في عهد نهضتنا حيث كان توما الاكويني - ولو كان عن غير قصد منه لتكون الأساس الفكري للحضارة الغربية ولم تكن ثورته ضد ابن رشد وضد القديس أوغسطين إلا مظهرا للتجديد السلبي حتى يستطيع تصفية ثقافته مما كان يراه فكرة إسلامية أو ميراثا ميتافيزيقيا للكنيسة البيزنطية. واتى بعده (ديكارت) بالتجديد الإيجابي الذي رسم للثقافة الغربية طريقها الموضوعي الطريق الذي بني على المنهج التجريبي. والذي هو في الواقع السبب المباشر بتقدم الحضارة الحديثة تقدمها المادي[1].

-تكامل الأصالة والمعاصرة:

إذ من الأخطاء العميقة التي وقع فيها الكثير من الكتاب والمثقفين، أن عطاءهم الفكري والثقافي، انطلق إما من موقع تراثي لا يرى في العلم الحديث ومكتسبات العصر ما يستحق الذكر والاستفادة منه .أومن مواقع القطيعة مع الثقافة الذاتية، والوقوف على أرضية الثقافة الغربية ومفاهيمها.. وكلا الموقعين قد ضّيعا المسألة الجوهرية في هذا المضمار: التراث المنغلق.. ضيع مكاسب العصر وإنجازاته، والمغترب المتعالي قد ضيع تاريخه وقيم مجتمعه الجوهرية ..وانطلاقا من منطق الإلغاء والنفي كل منهما للآخر فقد" تحول النقاش

[1] نفس المرجع ، ص 91.

إلى تبادل للاتهامات، وأصبحت براهين الطرفين وحججهما واحدة تقريباً في الشكل والمضمون ومنهج الحوار، رغم اختلاف الحقب وتبدل السياق التاريخي والاجتماعي والفكري فقد أخذ أصحاب الحداثة على خصومهم تخلف تفكيرهم ومعاداتهم للتقدم وضلوعهم نتيجة ذلك موضوعياً مع القوى التي تريد للمجتمع العربي أن يبقى في حالة الانحطاط التي هو فيها وما لبث هذا الاتهام أن تحول إلى اتهام بالتآمر مع الغرب ومشاركته في إضعاف المقاومة العربية. ودرج الأصوليون بالمقابل من إسلاميين خالصين أو إسلاميين عروبيين على اعتبار فكر الحداثة والتحديث امتداد لفكر الغرب ووصموهم بالنقل عن المستشرقين والضلوع معهم في التآمر على الثقافة العربية، ونظروا إليهم على أنهم طابور خامس يساهم في تأكيد الغزو الروحي والسياسي والاقتصادي للغرب وتوسيعه". وظل عطاء الكثير من الكتاب والمفكرين حبيس هذه المساجلات والاستقطابات المتبادلة بين التيارين.. بينما العطاء الثقافي الذي أوجده بن نبي قد تميز بتكامل كلا العنصرين.. إذ لا يمكن المقايضة بين التاريخ والحاضر.. وتتضح مسألة تكامل الأصالة والمعاصرة في فكر مالك بن نبي من خلال فهمه لمفهوم الحضارة، باعتبارها قدرات تنبثق من إمكانات الداخل العربي والإسلامي، وليست هي مجموع المظاهر الاستهلاكية للحضارة.. إذ يقول: "الحضارة ليست شيئاً يأتي به سائح في حقيبته لبلد مختلف كما يأتي بائع الملبوسات البالية.. بل إن ابن المستعمرات هو الذي يذهب إلى الحضارة، إلى مصادرها البعيدة.. وقبل كل شيء إلى مصادرها الأقرب إلى أصالته، وليس الحضارة في نية المستعمر ولو صحت هذه النية، بل هي نتيجة الجهد الذي يبذله كل يوم الشعب الذي يريد التحضر .. "وهو بهذا يرد على أولئك الذين يعتقدون أن محاكاة الغرب وتقليده في كل شيء هو سبيل التحضر وامتلاك ناصية الحضارة وتتضح هذه المسألة جلياً أيضا في النتاج الثقافي ل (بن نبي) حينما يقول في كتابه شروط **النهضة [1]:**لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج مغفلا مكان أمته ومركزها.. بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلولا من الشرق أو الغرب، فإن ذلك تضييعاً للجهد ومضاعفة للداء.. إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار

[1] نفس المرجع ، ص 92.

وعلاج أي مشكلة يرتبط بعوامل زمنية نفسية ناتجة عن فكرة معينة تؤرخ ميلادها عمليات التطور الاجتماعي، في حدود الدورة التي ندرسها فالفرق شاسع بين مشاكل ندرسها في إطار الدورة الزمنية الغربية، ومشاكل أخرى تولدت في نطاق الدورة الإسلامية. ومجال المجتمع ليس كمجال الميكانيكا، وهو لا يرتضي كل الاستعارات، لأن أي حل ذا طابع اجتماعي يشتمل تقريباً ودائما على عناصر لا توزن.. ولا يمكن تعريفها ولا يمكن أن تدخل في صيغة التعريف، على حين تعد ضمنا جزءا منه لا يستغني عنه، عندما تطبق في ظروف عادية أي في ظروف البلاد التي نستورد منها وإذن فلكي نواجه بطريقة فنية أية مشكلة اجتماعية، ينبغي ألا يقتصر عملنا على اقتراض الحلول التي تأكدت صحتها خارج بلادنا إذ أن الصيغة المقتبسة صحيحة بلا أدنى شك ولكن في إطارها الاجتماعي في محيطها الذي تحققت فيه، نفحة الروح التي تخيلتها

-المنهجية والفاعلية:

وهي عبارة عن القدرة الفذة التي تميز بها مالك بن نبي في إبراز مشكلة العالم المتخلف باعتباره قضية حضارة أولا وقبل كل شيء.. ويكشف لنا (بن نبي) عن منهجيته الفذة حين حديثه عن الدورة الخالدة إذ يقول: "إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق بفكرته إلى الأحداث الإنسانية وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها، وما الحضارات المعاصرة، والحضارات الضاربة في ظلام الماضي والحضارات المستقبلية إلا عناصر للملحمة الإنسانية منذ فجر القرون إلى نهاية الزمن". والمنهجية في فكر بن نبي لا تعني الجمود والترهل على المستوى الفكري والعملي، وإنما أسند بن نبي فكره المنهجي بفعالية وديناميكية تتصف بها معالجاته لشؤون الثقافة والحضارة.. إذ يقول: [1]فالفكرة من حيث كونها فكرة ليست مصدراً للثقافة أعني عنصراً صالحاً لتحديد سلوك ونمط معين من أنماط الحياة، فإن فاعليتها ذات علاقة وظيفية بطبيعة علاقاتها بمجموع الشروط النفسية الزمنية التي ينطبع بها مستوى قد يتغير بطريقتين: فهو عندما يرتفع تعرض له في الطريق أفكار ليست من بين القوى الجوهرية

[1] نفس المرجع ، ص 93.

التي نتجت عنها الحركة التاريخية فإذا بهذه الأفكار تتقادم ثم تختفي ..ففكرة حجر الفلاسفة التي كانت من أكبر دوافع الفكر العلمي خلال العصر الوسيط، هذه الفكرة قد ماتت منذ أعلن (لافوازييه (نتائج أبحاثه الكيميائية.. وهو عندما يهبط تنقطع من منابع خلقية وعقلية صدرت عنها فتكسب هذه الأفكار وجودا صناعيا غير تاريخي وبذلك تفقد كل معنى اجتماعي". ولكي يكون عطاء الثقافة فعالاً ومستديما، لابد من أن نوثق الصلة الضرورية بين الفرد وعالم الأفكار وعالم الأشياء وعالم العناصر والظواهر الطبيعية.

إن توثيق صلة عالم الأشخاص بهذه العوالم هو الكفيل بخلق واقع اجتماعي جديد. من خلال هذه الخصائص الثقافية نجد أن المشروع الفكري ل (مالك بن نبي) (1905-1973م) اتجه إلى المشكلة الأصلية والأساسية في العالم العربي والإسلامي.. ولهذا فقد عاشت فكرة الحضارة في عقله ووجدانه وشغلت تفكيره في كل كتاباته، إلى درجة نستطيع أن نقول معها أن الفكر الإسلامي المعاصر لم يشهد تقريباً مفكرا شغلته قضية الحضارة مثل (مالك بن نبي)، الذي يعتبر شخصية فكرية خصبة جديرة بالدراسة، وهو المفكر الذي اهتم بالجانب الحضاري وفلسفة التاريخ والاجتماع وشغلته مشكلات أمته فعالجها بروح موضوعية[1]. "

فمشكلة الحضارة هي مشكلة العالم العربي والإسلامي الجوهرية ،ولذلك اهتم بن نبي بها وركز جهوده الفكرية والنظرية في سبيل بلورة الرأي، واقتراح الحلول لتجاوز هذه المشكلة الحضارية. ويشير إلى هذه المسألة مالك بن نبي نفسه بقوله: أعتقد أن المشكلة التي استقطبت تفكيري واهتمامي منذ أكثر من ربع قرن وحتى الآن ، هي مشكلة الحضارة وكيفية إيجاد الحلول الواقعية لها، وإزالة التناقض بين النجاح المادي والتخلف المعنوي، أعني تخلف القيم أو إهمالها، ولقد شعرت منذ فترة طويلة وعلى وجه التحديد منذ وصولي إلى أوروبا لتلقي العلم عام (1930م) أن المجتمعات المعاصرة بالغة التعقيد ومتعددة الأنواع.

ويتجه عطاء بن نبي الثقافي والفكري نحو إدخال العالم العربي والإسلامي في دورة حضارية جديدة وإعادة الشعوب العربية والإسلامية إلى حلبة التاريخ.

---

[1] نفس المرجع ، ص 96.